موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جـــورج حبيب باوي

محاضرات في تجسد الكلمة
للقديس أثناسيوس الرسولي
المحاضرة الثالثة

www.coptology.com

Coptology
Ϩⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

محاضرات في تجسد الكلمة
للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الثالثة

دكتور

جورج حبيب باوي

٢٠٠٩

www.coptology.org

– ١ –

خلق الإنسان حسب صورة الله

إذا حصرنا النصوص الخاصة بالصورة الإلهية، فهي حسب ترتيب الفصول:
(٣: ٣ – ٤: ٦ – ٥: ١ – ٦: ٤ – ٧: ٤ – ١١: ٣ – ١٢: ١ – ١٣: ٢ – ١٤: الفصل كله – ٢٠: ١).

وهكذا يكون من السهل علينا تتبع شرح القديس أثناسيوس حسب ترتيب الفصول. وهذا الأسلوب يبدو الأقرب إلى طريقة الوحي.

أولاً التمييز بين الصورة، وحسب الصورة:

خُلِقَ الإنسان حسب صورة الله، وصورة الله هو الكلمة ٣: ٣. فالابن هو صورة الله الذي يعلن الآب. والبشر هم صورة الكلمة. ومفردات هذه الصورة حسب عبارات القديس أثناسيوس نفسه:

– **"شركة في قوة اللوغوس"** (٣: ٣).
– **"هي شركة تبعية الظل للنور"** (٣: ٣).
– **"وهي القدرة العاقلة"** (٣: ٣).

هذه القدرة هي سر سعادة الإنسان، وهي أيضاً سر "الحياة الحقيقية" (٣: ٣) التي تختلف عن الحياة المزيَّفة التي جاء بها الشر (٤: ٥). فالشر – تحديداً (حسب كلمات أثناسيوس) – هو: "كل ما هو شر فهو عدم" (٤: ٥). وعدمية وفناء الشر ترجع إلى أن خالقه، وهو الإنسان لا يستطيع أن يجود على ما يخلقه ويمده بالحياة والبقاء، ولذلك يفسد مع طول الزمان.

والتمييز بين الصورة، وحسب الصورة تمييز ضروري جداً لفهم أساس الخلاص نفسه؛ لأن الإنسان الذي يستمد كيانه وبقاءه من الله الكلمة ليس إلاَّ صورة للكلمة، فقد "دُعي الإنسان إلى الوجود بقوة الكلمة ومحبته للبشر" (٤: ٥)، فقد حصل على وجوده من الله الكائن بالطبيعة (٤: ٥).

إذن، الكينونة الإنسانية لا بقاء لها بدون الشركة، ولذلك عبارة القديس أثناسيوس:

"الإنسان فانٍ بطبيعته لأنه خلق من العدم" (٤: ٦).

لكن الإنسان الذي حُصِرَ وجوده بين:

- البقاء على صورة الله الكائن (٤: ٦).
- والفناء لأنه خلق من العدم (٤: ٦).

كان قادراً على أن يبقى في الشركة، وأن يفلت من الفساد الطبيعي (٥: ١)، وهي عبارة خاصة تؤكد أن ما جاء من العدم يفسد حسب الطبيعة، فلا بقاء خاص له.

ثانياً: "حسب الصورة" – كشركة في قوة الكلمة – هي أساس تألُّه الإنسان في المسيح:

ما هو المقصود بأن الله "وهبنا أيضاً بنعمة الكلمة إمكانية أن نعيش حسب الله" (٥: ١)؟

يجب أن ننتبه إلى عبارة "**نعمة الكلمة**"، فالإنسان الذي جاء من العدم إلى الوجود، لا يوجد في كيانه قدرة خاصة تمكِّنه من البقاء أو الحياة إلى الأبد بدون الله؛ لأن:

١– ما هو مخلوق له وجود يحدده الخالق، وهو حسب الصورة.

٢– ما جاء من العدم ليس له بقاء ذاتي، أو حسب اللغة السائدة ليس "واجب الوجود"، فالله وحده هو الكائن وكل مخلوق – مهما كان – يستمد كيانه من الله.

٣– الإنسان لا يملك كيانه؛ لأن ما هو مخلوق وُهِبَ "نعمة الصورة"، فإذا فَقَدَ هذه النعمة، فَقَدَ الشركة، وفقدان الشركة يعرضه لفقدان الوجود حسب الصورة.

جواب على اعتراض شائع:

١– هل يعني هذا أن الإنسان كان يجب أن يعود إلى العدم الذي جاء منه؟ والجواب – كما سنراه – هو أن الإنسان الذي سقط في قبضة الموت، كان سائراً حتماً نحو الفناء، لكن الله أبقاه في الوجود لكي يخلِّصه في يسوع المسيح.

٢– هل يعني هذا أن الإنسان خالدٌ بالطبيعة؟

بكل تأكيد لا؛ لأن الوجود نعمة، وخَلْقُ الإنسان على صورة الله هو نعمة، فهو لا يملك النعمة؛ لأن العطية مرتبطة بالشركة، وليست لبقاء ذاتي منفصل قادر على البقاء بدون الله.

إذا تذكرنا أن كل ما نملك هو نعمة من الله خالقنا، أدركنا أنه حتى الخلود أو عدم الموت ليس طبيعة، بل نعمة. والفرق بين الطبيعة والنعمة هو فرق كبير جداً يجب أن ننتبه إليه وما يترتب عليه[١].

لو كان الإنسان خالداً بالطبيعة، لَعَجز الموت عن أن يمسك بالإنسان، ولَما

(١) راجع رسالة د. وهيب قزمان بولس عن "النعمة عند أثناسيوس" – نشر مركز دراسات الآباء بالقاهرة.

صح ما تذكره كلمات التقوى الأرثوذكسية: "هذا الذي كنا ممسكين به مبيعين من قبل خطايانا" (القداس الباسيلي).

-٢-

الطبيعة والنعمة

أولاً: الطبيعة:

عندما ذكر القديس جيروم إن الرسالة إلى الوثنيين وتجسد الكلمة هما معاً كتاب واحد[١]، فقد كان على صواب، نظراً لأن المؤلف يتابع شرحه في تجسد الكلمة مكملاً الشرح السابق في الرسالة إلى الوثنيين.

ما هي طبيعة الإنسان؟

يقول المعلم الكبير:

"الله خالق الكون وملك الكل الذي يعلو على كل كينونة وإدراك إنساني؛ لأنه صالح وجوَّاد، خلق الجنس البشري حسب صورته الذاتي، كلمته مخلصنا يسوع المسيح". (الرسالة إلى الوثنيين ١: ٥ ص ٧).

فما هي الصورة؟

"وجعله (الجنس البشري) قادراً على إدراك وفهم الوجود الحقيقي بوساطة التشبُّه (بالله) وأعطاه معرفة وتصوُّر أبديته" (الرسالة إلى الوثنيين ١: ٥ ص ٧).

فالصورة هي القدرات العقلية.

---

(١) مشاهير الرجال فقرة ٨٧.

لكن هذه الطبيعة لها حدود، ولذلك يقول أثناسيوس:
"إذا حفظ الإنسان أو أبقى على مثال الله، فهو لن يبتعد عن إدراكه لله، ولن يفارق شركة القديسين". (الرسالة إلى الوثنيين ١: ١٠ ص ٧).

الطبيعة يجب أن تبقى في الشركة، وفي عبارة محددة يقول أثناسيوس:
"إذا حفظ نعمة مَن أعطاه وأيضاً القوة الخاصة التي أعطاها له كلمة الآب، فإنه يفرح ويخاطب الله ويحيا الحياة الكاملة والمباركة حقاً والخالدة" (الرسالة إلى الوثنيين ١: ١٠ ص ٧).

الطبيعة حرة، ولذلك يقول أثناسيوس إن الله عندما خلق الإنسان كان يعرف أنه يستطيع بحريته أن يميل نحو الشر، لذلك دعَّم الوجود الإنسان:
أولاً: بالصورة.
ثانياً: بالوصية.
ثالثاً: بالفردوس أو الجنة (تجسد الكلمة ٣: ٣، ٤).
هنا ندرك أن ميل الإنسان هو بسبب عطية الحرية، وهي عطية لها جذر في الله نفسه؛ لأن الله حرٌ، وحرية الله ليست مثل حرية الإنسان تجعله يميل إلى ما هو ضد طبيعته وضد صلاحه. ولكن لأن الله صالح وجوَّاد، فهو لا يحفظ الإنسان في الشركة "قسراً" وبلا حرية؛ لأن انتفاء الحرية يعني انعدام المحبة.

الطبيعة تبقى إذا حفظت النعمة. وإذا كانت النعمة حسب تعبير أثناسيوس "أضيفت" إلى الإنسان، فإن الطبيعة تبقى حرة إذا ظلَّت في الشركة. من هذه النقطة بالذات ندرك أن النعمة التي أضيفت إلى الطبيعة لا تصبح من الطبيعة، بل هي باقية إذا

بقيت الشركة.

مميزات خاصة بالطبيعة:

أولاً: هي على مثال الله، أو حسب صورته ومثاله (تكوين ١: ٢١). والمثال هو تشبُّهٌ بالله، ولكن هذا التشبُّه ليس من القدرة ولا هو بالإرادة المخلوقة من العدم، بل هو بواسطة نعمة الصورة.

فالمثال نعمة لا يملكها الإنسان بالطبيعة، بل هبة أخذها بالنعمة.

ثانياً: نالت الإنسانية "نصيباً" في قوة الكلمة، وقوة الكلمة ليست قوة مخلوقة؛ لأن الكلمة خالق الكل ليس مخلوقاً. وهنا تصبح القوة الإلهية في الإنسان هي عطية.

"حسب الطبيعة الإنسان ميت

το κατα φυσιν ανθρωποφ θνητοφ
Men is by nature mortal

لأن هذه العبارة تعني بالضبط "حسب الطبيعة الإنسان فاسد"، والسبب كما هو واضح من سياق الشرح نفسه؛ لأنه خُلِقَ من العدم (تجسد الكلمة ٤: ٦).

ثالثاً: لكن الخلق من العدم لا يمنع الإنسان عن شيء؛ لأن تحول الإنسان من العدم إلى الوجود جاء بواسطة محبة الله للبشر، وكان على الإنسان – كما يقول أثناسيوس نفسه – أن يكسر أو يغلب مصدر وجوده، أي العدم، إذا أبقى الله في معرفته أي في التأمل والخطاب الذي هو جزء من حياة الشركة (تجسد الكلمة ٤: ٦).

رابعاً: الفناء أو الموت هو الوجه الآخر للوجود الإنساني، إذا ضاعت الشركة وتحوَّل الإنسان عن الله خالقه، وحصر حياته وفكره في كيانه المخلوق من العدم.

وقد قدم أثناسيوس في الرسالة إلى الوثنيين عرضاً موجزاً لتحوُّل الإنسان على النحو التالي:

١– تحوَّل عن إدراك الوجود الحقيقي.

٢– بدأ يحدد كيانه حسب صورته هو، وليس حسب صورة الله.

٣– سجن الإنسان نفسه فيما هو أقرب إليه، وهو الجسد وشهوات الجسد.

٤– سقطت النفس العاقلة في فوضى *disorder*

٥– تراجع الإنسان عن استخدام القوة التي أخذها من الله في البدء.

ولعل أهم فقرة في هذا الفصل بالذات هي التي تتحدث عن تحول الإنسان نحو تحديد كيانه ووجوده ليكون حسب الصورة والمثال الذي اختاره، وهو – حسب كلمات أثناسيوس – التحوُّل إلى الاتجاه المضاد تماماً، وهو الذي ساق الإنسان نحو شهوات متعارضة ومتباينة.

٦– سقط الإنسان فريسة للخوف والفزع، لكن أخطر ما في هذا التحول ليس الاتجاه المضاد، بل "θνητα φρονειν" – ذهنيات (من ذهن أو إدراك) الموت" (الرسالة إلى الوثنيين ١: ٣ و٢٨ ص ١٠)، فلقد دخل فكر ومحتوى الموت ودخل معه "الخوف من الموت" (المرجع السابق ١: ٣ – ٣٠ ص ١٠).

ثانياً: النعمة:

هي قبل أي شيء آخر، هي الوجود حسب الصورة الإلهية.

ونجد عند أثناسيوس نفسه شرحاً وافياً للوجود الإنساني حسب صورة الله، هكذا:

أولاً: شركة في الكلمة.

"لكنهم بنعمة اشتراكهم في الكلمة" (تجسد الكلمة ٥: ١).

هذه الشركة في الكلمة هي أن الخليقة:

"خلقت عاقلة، وكان لها – قبل السقوط شركة في الكلمة" (٦:

٤)، هذه "هي نعمة مماثلة لصورة الله" (٧: ٤).

وكلمة "شركة" باللغة العربية أضعف بكثير من الكلمة اليونانية؛ لأن الفعل اليوناني يعني "الحصول على، ونوال ما هو غير موجود"، فالإنسان يشترك فيما لا يملك، لأنه كيف يشترك فيما يملك.

الشركة حسب الخلق على صورة الله هي حسب كلمات أثناسيوس نفسه:

"جعل (الله) لهم نصيباً في صورته الذاتي" (١١: ٣).

ثانياً: هذه الشركة هي معرفة الآب من خلال الكلمة وبواسطة كيان الإنسان نفسه الذي صُوِّرَ على مثال الابن؛ لكي – بتأمل كيانه – لا يقع الإنسان في ازدواجية المعرفة، أي تصبح معرفته بنفسه مثل مرآة يرى فيها الإنسانُ الابنَ الكلمة، إذ تعكس هذه المرآة حقيقة الوجود حسب الشركة[١].

ومن باب المعرفة دخل إغراء الشيطان. ومشورة الشيطان كلمة سهلة في اللغة العربية، فهي "رأي أو فكرة، مجرد مشورة"، ولكن الكلمة اليونانية συμβουλια هي مكونة من مقطعين συμ و βουλια أي "الرؤية المشتركة"، فهي لم تكن مجرد فكرة. ولذلك، فحتى الكلمة الإنجليزية *council* لا تعطي المعنى الدقيق.

لقد شارك الإنسانُ الشيطانَ ذات الفكرة (تجسد الكلمة ٥: ١).

ولذلك أعاد الإنسان تحديد كيانه وجعله صورةً لذاته، ثم أعاد تحديد الله نفسه، فسقط في الوثنية على النحو الذي شرحه القديس أثناسيوس في فصل ٢ من الرسالة إلى الوثنيين، ولم تكن الوثنية سوى تحديد *Definition* لله نفسه، أي

---

(١) النفس – كمرآة – تقليد قديم سبق القديس أثناسيوس نفسه. (راجع ثيوفيلوس الأنطاكي ٢: ١ في Ad Auto locum والرسالة إلى الوثنيين للقديس أثناسيوس فصل ٨: ١٣ ص ٢٠).

ορους جاء من كيان فَقَدَ المعرفة الحقيقية، ودخلته:

١– معرفة مزيفة.

٢– معرفة مزدوجة لكيانٍ صار حسب صورة الإنسان، أي بدون الصورة الإلهية.

٣– معرفة متنوعة متنافرة خلقت الفوضى كما سبق وذكرنا.

٤– معرفة يقوم فيها الخوف من الموت بدور مدمر، إذ كما يقول أثناسيوس نفسه حوَّل الإنسان إلى بحثٍ دائبٍ عن عدم الموت أو الخلود، ولكن بالقتل والزنا والتهور في السلوك (فصل ٩ من الرسالة إلى الوثنيين، ثم راجع فصل ١١ كله).

ثالثاً: الطبيعة والنعمة في الفصل ١٤ من كتاب تجسد الكلمة

لم تتحول النعمة إلى طبيعة، وإنما ظلت مرتبطة بالشركة، بقيت من الشركة. أنها حسب ما نراه في الفصل ١٢ مماثلة الصورة الإلهية، أي الكلمة (١٢: ١)، وهي القدرات العقلية (١٣: ١ – ٢). وفي الفصل الرابع عشر يقدم القديس أثناسيوس التشبيه الذي يشرح العلاقة بين الطبيعة والنعمة.

١– صورة رُسِمَتْ على قماشٍ، ثم تلطخت (١٤: ١).

٢– اختفاء ملامحها (١٤: ١).

لم يرفض صاحب الصورة اللوحة أو الأيقونة المرسومة، بل

أ– جاء لكي يجدد الرسم مرة أخرى.

ب– جاء "لكي يجدد الإنسان الذي خُلِقَ سابقاً على صورته" (١٤: ٢).

وتجديد الصورة يفتح لنا باب فهم العلاقة بين الطبيعة والنعمة، فالإنسان الذي خُلِقَ على صورة الله هو في حقيقة الأمر مخلوق.

في الفصل ٣٥ من الرسالة إلى الوثنيين، الحد الفاصل بين الله والإنسان هو أن

الإنسان مخلوق، والله غير مخلوق (٣٥: ١ – ١٠ ص ٩٤). والله لن يترك طبيعته غير المرئية (٣٥: ١٥ ص ٩٦). أمَّا الإنسان المخلوق فهو ***In a state of flux*** (الرسالة إلى الوثنيين ٤١: ١٥-٢٠ ص ١١٤).

ولكن حتى لا تعود الطبائع المخلوقة كلها إلى العدم، يثبِّت الكلمة وينير كل المخلوقات لكي تبقى ثابتة؛ لأنها تشترك في الكلمة الذي من الآب والذي يُعين كل مخلوق لكي يبقى موجوداً، وحتى لا تعاني الخليقة وتعود إلى عدم الوجود إذا لم يكن الكلمة يعطي لها حماية ودعماً لكي تبقى (كولوسي ١: ١٥ – ١٨، والرسالة إلى الوثنيين فصل ٤١: ٢٥ – ٣٠ ص ١١٤).

هذا يؤكد لنا معنى عبارة "الفساد الطبيعي"، أي عدم قدرة الإنسان على أن يبقى بقدراته موجوداً وحياً إلى الأبد. والفساد الطبيعي = الفناء الطبيعي = الموت (راجع الفصل ٤ كله من تجسد الكلمة لا سيما ٤: ٦)، ونلفت النظر إلى هذه العبارات تحديداً:

– **"تعدي الوصية أعادهم إلى حالتهم الطبيعية"** (٤: ٤).

– **"حصلوا على وجودهم من الله الكائن، لذلك كان لابد أن يُحرَموا إلى الأبد من الوجود. وهذا يعني انحلالهم وبقائهم في الموت"** (٤: ٥).

– **"الإنسان ميِّت أو فانٍ بطبيعته لأنه خُلِقَ من العدم ... كان ممكناً أن يقاوم قوة الفناء الطبيعي ويبقى في عدم فناء لو أنه أبقى الله في معرفته" (سفر الحكمة ٦: ١٩)"** (تجسد الكلمة ٤: ٦).

من هذه العبارات يمكن أن نؤكد دون تردد إن ما في الطبيعة الإنسانية عائد

إلى الله نفسه، وأنه لا وجود حقيقي حي للإنسان بدون الله.

رابعاً: الطبيعة والنعمة في فصل ٤٤ في كتاب تجسد الكلمة

أولاً: يجب أن نلاحظ أنه لا يوجد فصل خاص في كل مؤلفات أثناسيوس عن الطبيعة والنعمة.

ثانياً: لا يوجد تعليم عن الطبيعة يمكن أن يقال بشكل منفصل عن النعمة وذلك:

١– لأن كل ما هو كائن، هو عائد إلى صلاح الله ومحبته للبشر.

٢– ولأن لا وجود خاص للإنسان يجعله قادراً على أن يحيا بدون الله أو بدون شركة.

إذا تأكدنا من هذا، علينا إذن أن ندقق في كلمات المعلم الكبير في فصل ٤٤.

يجيب أثناسيوس على اعتراض قيل ولا يزال يقال حتى اليوم، وهو حسبما سجَّله المعلم الكبير:

> **"إن الله لو أراد أن يرد البشرية ويخلصها، كان يمكنه أن يفعل هذا بنطقٍ عال وبدون أن يتخذ الكلمة جسداً، أي أنه كما خلق البشر من العدم بكلمة في البدء ...."** (٤٤: ١).

لكن علينا أن نلاحظ تسلسل السرد نفسه:

١– في البدء، ما كان مطلوباً، هو مجرد نطق يحقق عمل الإرادة الإلهية، وبذلك يتم الخلق (٤٤: ٢).

٢– فكان أن جاءت الخليقة والإنسان من العدم إلى الوجود. فقد حدث الخلق وأصبح الإنسان الموجود أو الكائن هو المحتاج إلى علاج "علاج أو شفاء ما هو

موجود" (٤٤: ٢).

الوجود إذن هو ما يجب أن يُعالج؛ لأن ما هو موجود يستدعي أن "يظهر الطبيب والمخلص فيما هو موجود، أي الإنسان" (٤٤: ٣)، ولذلك تجسَّد.

٣– ولكن التجسُّد لم يكن مجرد اتخاذ جسد، بل "أن الفساد الذي حدث لم يكن فساداً خارج الجسد، بل كان ملاصقاً به" (٤٤: ٤).

ولكي يتم شفاء الإنسان:

أ– كان الأمر يحتاج إلى أن تلتصق به الحياة بدلاً من الفساد (٤٤: ٤).

فالخلاص جرعة حياة مِن الذي هو "الحياة".

ب– "حتى كما صار الموت في الجسد، تصير الحياة في الجسد أي في داخله" (٤٤: ٤).

ج– "صار الموت من نسيج الجسد" (٤: ٥).

ولكي يتم تحول وشفاء الإنسان من الموت إلى الحياة:

١– كان من اللازم أن تصير الحياة داخل نسيج الجسد أيضاً، حتى إذا لبس الجسد الحياة بدل الموت، فإنه يطرح عنه الفساد.

٢– جاء الكلمة وهزم الموت، ولكن كان "الفساد سيظل باقياً في الجسد" (٤: ٥)، فلابد من تحول الجسد.

٣– كان من الصواب أن يلبس المخلص جسداً؛ لكي إذا اتحد الجسد "بالحياة" لا يعود يبقى في الموت كمائت، بل إذ قد لبس عدم الموت (طبيعة الله الكلمة)، فإنه يقوم ثانيةً ويظل غير مائت (نعمة القيامة).

إن ما حدث للطبيعة الإنسانية هو أنها:

١– مثل القش قابلة للاحتراق، أي الموت، حتى إن ظل القش بعيداً عن النار "لم يحترق يظل مجرد قش قابلاً للاحتراق بالنار" (٤٤: ٧).

٢– ولكن هذه الطبيعة القابلة للاحتراق، أي الموت، قد لبست الحياة وحقق الكلمة الحياة للإنسانية ليس فقط بإبادة الموت، بل بإبادة الفساد (٤٤: ٨).

هكذا يجب علينا أن ندقق النظر في العبارة το κατα φυσιν (الفصول ٤، ٥، ٧، ٢٨) لأن هذه العبارة هي بالضبط κατα φυσιν φθορα (راجع فصل ٣٠)، لكن ما يحفظ الإنسان هو البقاء في الصورة.